سـالـم حميش

# « جـاك بـيرك »
# ومسـألة الاستشـراق

المستشرقون ـ إلا القليل منهم ـ يعطون الانطباع أنهم ينتمون إلى مجمع علمي له عصبيته وتقاليده . القاعدة العامة أن بينهم يخيم جو من التسامح والتعاضد وحسن الجوار وحتى حينما يتعدون عن وعي أو لا وعي هذه القاعدة ليتبادلوا الانتقادات أو الطعون ، فإنهم يحرصون على أن يبقى ذلك خاصا بهم كأعضاء أسرة واحدة .. ولكن ، بمجرد ما يرتفع صوت من خارج الحرم المجمعي ليصوغ انتقادات أو يباشر بعض المراجعات المحرجة في حق المستشرقين ، ترى هؤلاء يشعرون بتدخله فيما لا يعنيه أو بجحوده ، ونكرانه للجميل ، وتراهم يتذمرون ويعبسون أو يقابلونه بالتحديات ، كما حدث مثلا مع إدوار سعيد ... سؤالي : ما هي من حيث المشروعية المعرفية شروط إمكان نقد الإستشراق ؟

ـ ج بيرك : بدءا ، أعرف « الشرق » بالحضارات ذات اللغات « الشرقية » ، وغالبيتها إسلامية ، أما « المستشرقون فهم الباحثون الغربيو الأصل ، الذين يشتغلون بتلك الحضارات ، إن هذا هو التعريف الشائع ، وإن كان غير جامع أو مانع .

جوابي على سؤالكم : تنتقدون عند أولئك الباحثين توجههم التعاضدي : فكيف نعجب من هذا وهم يهاجمون كباحثين . وتضيفون سائلين : ما هي شروط انتقادهم على نحو موضوعي مناسب ؟

بالفعل ، إن ذلك ممكن ، **سلبيا** ، باتباع طرق النقد التخصصي ، أي بوضع أعمالهم على محك الواقع الذي وسعوا إلى تحليله . كما أن ذلك بإمكاننا وحتى من واجبنا ، **إيجابيا** ، من خلال إنجاز أعمال تكون علميا أحسن وأقوى . ودون هذين الشرطين ، لا نأتي إلا بنشر ظلامية جديدة ، موهمين « الشرقيين » بأنهم وحدهم قادرون على دراسة أنفسهم ، بدعوى أحقية الانتماء الأصلي ، وهذا ، في الاتجاه العكسي ، من شأنه أن يمنع عليهم بالطبع دراسة ديكارت

او هيجل المخصوصين على « الغربيين » وحدهم .

إن الروح الإنسانية واحدة ، ونظرة الغير ، إن كانت لها عيوبها ومكامن ضعفها ، فإن لها أيضا محاسنها . وفي كل الأحوال ، لا يلزم تشجيع الشباب الشرقي على الأخذ بحلول الكسل والاكتفاء الذاتي .

هل يعني هذا أن الباحثين العرب النشطاء في النقد السلبي للإستشراق ، لا يزالون دون المستوى المطلوب من النقد الإيجابي ، كما عرفتموه ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف تفسرون صعوبات الباحث الوطني في أن يفعل أحسن من المستشرق ؟

ـ ج بيرك : طبعا يتضمن الوسط الثقافي العربي أسماء كبيرة لباحثين يكتبون بلغتهم وكذلك بلغات غربية ، فرنسية أو أنجليزية ، كقسطنطين زريق وماجد فخري وعبد الرحمن بدوي وعبد الله العروي وهشام جعيط وغيرهم . وإن كان عددهم لازال محدودا فمن دون شك لأن الشروط السياسية ـ الأجتماعية لا تكفل عموما للمثقف الأمن والأستقلال اللازمين لكل إنتاج متواصل وهناك أيضا تلكؤات البيدغوجيا العربية التي لم تتطور حقا منذ كتاب طه حسين الممتاز « مستقبل الثقافة في مصر » أضف إلى كل ذلك ما نجده عند الأنتلجنسيا العربية من مجاملة للسياسيين الحاكمين . وكلها عناصر نتمنى أن تكون مؤقتة وعابرة ويظهر لي أنه يلزم اليوم السعي إلى التغلب على مصدر كل الصعوبات أي إلى التوفيق بين التعليم الجماهيري الواسع وبين الحفاظ على مستوى كيفي لائق ، كما فعلت أوروبا إبان القرن الماضي .

يعيب ماسينيون على بعض المستشرقين تشريحهم لحياة الثقافة والتراث على نحو يفقدها لحمتها المشعة ... على ضوء هذا المطعن،لنا أن نفهم أن المعرفة الاستشراقية الواسعة ـ حتى في شكلها الأكثر تعمقا في باب الاحاطة التاريخية واللغوية ـ يمكنها أن تنطوي على مخاطر العمى أو على معاطب مضلة ضارة . فإذا كان هذا صحيحا ، ماهي ، حسب تجربتكم ، الاجراءات الاحتياطية التي يلزم اتخاذها لإحسان تسيير الإحاطة المعرفية التي تظل رغم كل شيء لازمة وشرطية ...

ـ ج بيرك : إن سسويولوجيا المعرفة تظهر حقا المخاطر التي تحدق بالموضوعية العلمية من جراء انتماء الباحث إلى طبقة اجتماعية بعينها ، أو إلى ثقافة أو وطن . وكل منهجية علمية هي جهد للتغلب على تلك المخاطر .

علاوة على ذلك ، يظهر أن سؤالكم يستهدف أساسا التحصيل الموسوعي erudi lion الذي ليس في تصوري سوى شكل قبلي للمعرفة . فالعالم الحق لا يلزم أن يتوقف عنده ، بل عليه أن يتجاوزه حتى يرقى إلى فهم العمق الإنساني طي تنوعه الجغرافي والتاريخي ، أي فهم الشمولي من خلال الخصوصي .

خارج الوصف ، أي في مجال التفسير والتنظير سجل الاستشراق الكلاسيكي أهم نقطه السيئة ، إذ أنتهى مع وجوه كرينان وماكدونالد وبيكر وهرخرونيه وجيب مثلا إلى مآزق وانكسارات فكرية . هل تعزون أسباب هذا إلى إخفاقهم في اختبار الفكر والمفهوم ، أو إلى مبالغتهم في استعمال مناهج لم تثبت بعد قيمتها الفعلية ( الفيلولوجيا والتاريخانية والمقارنتية ، إلخ ) ، أو أخيرا إلى كونهم يحشرون أنفسهم وعالمهم التربوي والثقافي في موضوع تأويلاتهم ؟

ـ ج بيرك : كل تلك العوامل واردة ، وإن بشكل متفاوت في الدرجة ، لكن

كما أكدت سابقا ، يمكننى القول بأن كثيرا من الباحثين ، لكونهم أهملوا المسك بالشمولى عبر الخصوصى ، انساقوا وراء النزعة الغرائبية -ex otisme أو على العكس . وراء توجه احتوائى مسطح . وأخيرا ، فإنهم عموما قد تجاهلوا أن كل علم إنسانى ، وإن لم يتمخض عن الاهتمام بالحاضر ، يتأدى بالضرورة إلى صيرورة المجتمعات . إنه من الأكيد حقا أن الاستشراق الكلاسيكى ، إلى حد جيلى ، قد تجاهل كثيرا حق المجتمعات الشرقية فى الحداثة . ولهذا السبب بالذات بقيت طويلا أعتبر نفسى لا كمستشرق بل كعالم اجتماع ومؤرخ .

**اليوم ـ إن تركنا جانبا الأبحاث الأنثربولوجية الوظيفية والمنوغرافيات التجريبية التجزيئية ، وكذلك دراسات خبراء الذهب الأسود والستراتيجيا ـ ألا تلاحظون أن الاستشراق يظهر كتركة للماضى القريب أكثر من كونه مشروعا حيا ، يأخذ على عاتقه هذه التركة ويطورها . أو بعبارات أخرى ، ألا ترون أن الاستشراق ، مع أعلام القرن التاسع عشر والعقود الستة أو السبعة الأولى لهذا القرن ، قد أعطى أحسن ما عنده ، وأن استشراقا جديدا ـ لأسباب تاريخية معلومة ـ لا يمكنه ، حاليا أو فى المستقبل المنظور ، أن يكتسى قوة سلفه أو يضاهى فعاليته وإشعاعه ؟**

ـ ج بيرك :هل يعتقد الباحثون العرب أنفسهم بأن مجتمعاتهم تعرف ذاتها جيدا ؟ هل يرون أن أى مجتمع تسنى له يوما أن يملأ خزاناته معرفةً أو ينال منها حتى التخم ، وأعنى المعرفة وكذلك المبادلات المعرفية مع الجيران ؟

إن الاستشراق اليوم ( إذا أصررنا على الاحتفاظ بالاسم ) ، هو جناح من العلوم الاجتماعية والانسانية ، جناح يساهم فيه ، بعدد متكاثر ، أبناء المجتمعات المعنية ، والذين تستوجب مصلحتهم ، فيما أرى ، ألا يحرموا أبدا الحوار مع الآخر .

**سؤالى يتعلق بالاستشراق فى حد ذاته ، وبالأساس بمستقبله : أى هل يبعثكم هذا المستقبل على الثقة بخصوص ظهور وجوه كبيرة جديدة ، بإمكانها أن تنافس علما وإشعاعا المعلمين الذين نعرفهم وتنتمون إلى زمرتهم ؟**

ـ ج بيرك : المغامرات الفكرية الكبرى إلى زمن قريب كانت تمثل انتقالا زمن حضارة إلى أخرى ومخاطر متخطاة وطاقات إنسانية زاخرة بالطعم الوجودى الذى تفرزه صعوبتها أو ندرتها . وإننا نتجه ، على ما يبدو ، إلى أشكال من التعلم المخبرى حيث سيحل إلى حد ما تقدمُ الاستهلاك العالمى وأهمية التكنولوجيا المطّردة محل المغامرات والمجازفات الفردية سيوجد دوما مخترعون ومكتشفون إلا أنهم سينصهرون أكثر فأكثر فى نمط الباحث ـ العضو والنقيب ـ المكلف . وهذا التحول قد حدث فعلا فى العلوم الدقيقة وهو بصدد الحصول فى الإنسانيات أما العلوم التى تفترض معرفة اللغات الصعبة وممارستها فستكون الأكثر مقاومة للدخول فى سيرورة ذلك التحول ، غير أن التطور سينتهى إلى إخضاعها هى أيضا . طبعا سيوجد دوما علماء يغارون على أصالتهم وامتيازاتهم ، إلا أنهم سيضاهون صورة رب العمل المهيمن على مساعديه وفريقه وآلياته . أما أنا ، فسأسعد إن شاء الله بالاختفاء قبل استحكام تلك الحقبة المنتصرة .